أحزان رجل لا يعرف البكاء

قصص قصيرة

خالد محمد غازي

الكتاب : أحزان رجل لا يعرف البكاء (قصص)

الكاتب : خالد محمد غازي

الطبعة : الرابعة ٢٠١٥



الناشر : وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ – ٣٥٨٦٧٥٧٦ – ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

غازي، محمد ، خالد

أحزان رجل لا يعرف البكاء – خالد محمد غازي – الجيزة –

وكالة الصحافة العربية

ص ، ١٨ سم .

تدمك : ٣- ٢٧ – ٥٧٧٢ – ٩٧٧

أ. العنوان رقم الإيداع / ٧٨٠١ / ١٩٩٩

أحزان رجل لا يعرف البكاء



إهداء :

إلى جدي ..

الرجل الذي علمني كيف أرى

المؤلف

أقوال :

ما معنى الشهرة ؟
هل يكترث النهر بزبده ؟ هكذا الشهرة زبد متناثر من تيار الحياة

"تاجور"

حقيقة أنا أمشي ببطء ولكن لم يحدث أبدا أنني مشيت خطوة واحدة إلى الوراء .

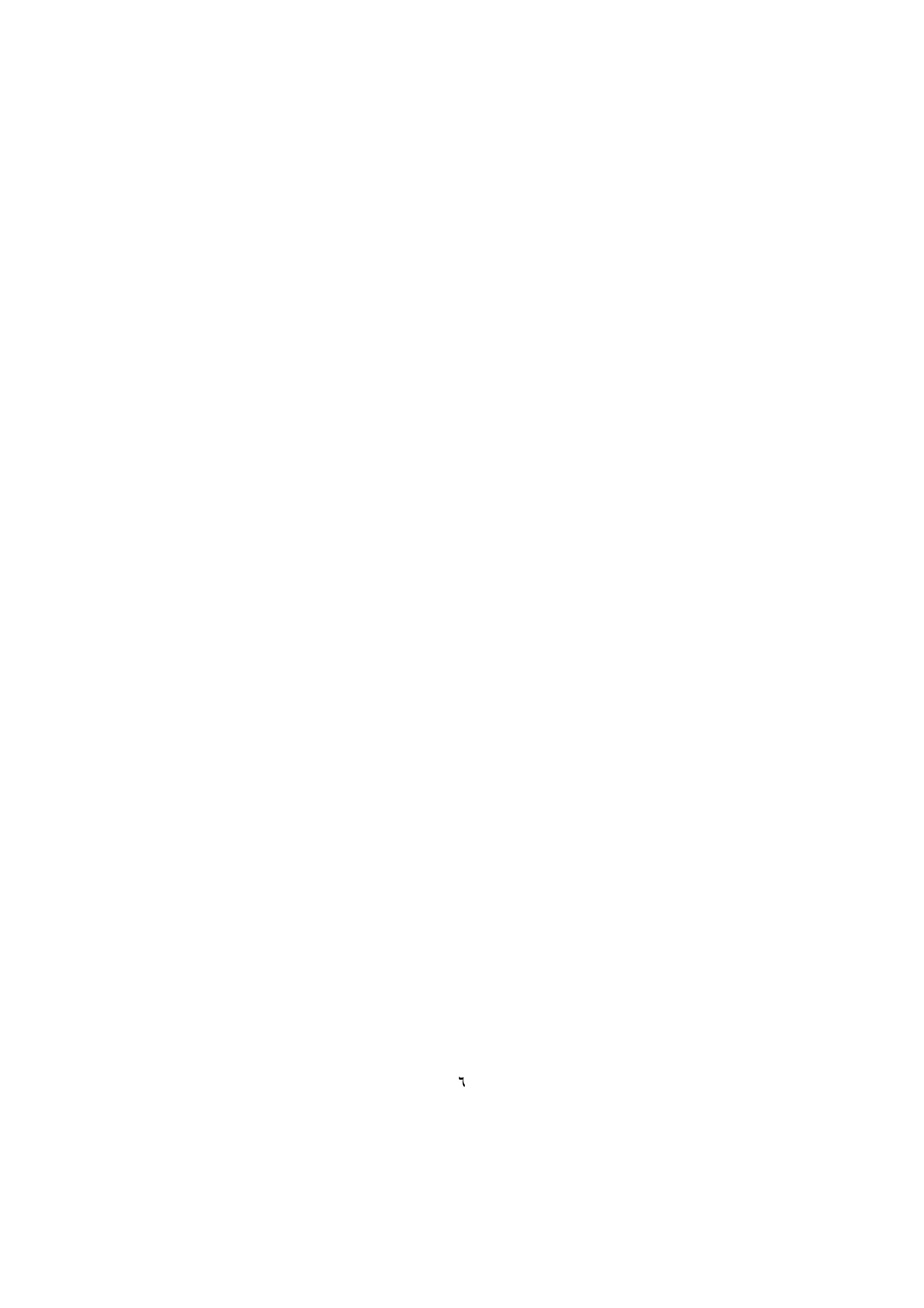
"ابراهام لنكولن"

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار ما لم تزود

"طرفة بن العبد"

كما نعرض أحيانا قضيبا معوجا للنار لنقوم اعوجاج؛ يعرضنا الله لنيران الحزن والأسي، ليقوم نفوسنا ويزيد استقامتها واعتدالها .

" ارستوفانيس "



ربما يأتي



البداية :

يغفو على صوت أمه يهدهده بأغنية .. مرحة هامسة ؛ يوقظه صوتها يرتل القرآن الكريم .. تعد له طعامه .. بعد أن ينتهي من صلاته يقبل يدها؛ فتدعو له بالتوفيق .. تودعه بنظرتها الحانية ؛ في عمله لا يعرف غير أجولة الأسمنت وأحجار البناء .. يحاول أن يستعيد أغنية أمه التي غنتها له البارحة .. يتذكر مقطعا منها أو مقطعين يرددهما .. عندما يعود من عمله تس–تقبله مدللة له .

– يا ضي العين وقطر الندى وشهد حياتي .

حدثته كثيراً في أمر زواجه ؛ لكنه كان يبتسم ويختلق الأسباب لتأجيل هذا الموضوع .

– هل مللت مني أماه ؟

يقولها وهو يضحك .. تغدق عليه نظرات الحنان .

– وأنت معي لا أمل أبدا ؛ فأنت دنياي .

التداخل :

يا ابن الصدق والصلاح وابن العطش .. يا أيها النبض في دمنا .. الساكن في شراييننا .. بحيويتك ، بوهنك واصفرارك – سلام عليك – يا ابن أمك ووحيدها .. نم مطمئنا يا صاحب النفس المطمئنة .. " يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية" .

صباح لا يجيء :

سكن في دمها .. في قلبها .. في حياتها ، عشق صوفي .. أسئلة كثيرة تدور .. تجول .. تصول .. تتصارع في ساحات فكرها . صوته يهمس "احك لي حكاية" .. الصوت يهمس مرة أخرى " احك حكاية من حكاياتك الكثيرة " الصوت يعلو ويعلو .. يحاصرها بسياج من الذكرى ؛ زاغت عيناها ذهولا .. شرد فكرها .. ذرعت الطرقات .. مشطتها خطواتها .. أنكرتها الطرقات .. أنكرها الناس .. برد الشتاء لايرحم والعطش لا يرحم .. ذهابا وإيابا تجوب الطرقات .. يا للتعب الذي لا نهاية له !.. الرجال يهمسون :

– لا حول ولا قوة إلا بالله .

النساء في بيوتهن .. يحكين حكايات كثيرة يختتمنها بقولهن:

– المرأة اختلت قواها العقلية .

الأطفال يلقونها بالحصى .. ينادون .. يهرولون وراءها "يا مخبولة"..
يسألونها:

– ومتى يأتي ابنك الغائب ؟

تتحجر الدموع في عينيها.. تهم بالانصراف .. يحاولون إيقافها .. تتمرد على الصمت .. تقهره .. بصوت متهدج تقول :

– سيأتي الغائب يوماً .

– متى ؟ .. متى ؟

– سيأتي مع صباح جديد .. عندما تشرق الشمس .. انظروا الشمس الآن يحاصرها الليل ؛ فتبدو مهزومة أمام جحافله .

يركض الأطفال خلفها .. يتحرشون بها .

– صفي لنا ملامحه .

– وكيف أصفه وهو فوق الوصف ؟!

يضحكون .. يرفعون عقيرتهم بالضحك الساخر .. يقولون بصوت جارح:

– يا لك من امرأة مخبولة .. مخبولة .

يمتلئ الجو بالغبار .. تذرع الطرقات .. ذاهبة .. قادمة .. تردد أغنية حزينة لم تعرفها ولم ترددها من قبل .

فاصلة :

– لماذا لا تنتظرينه في بيتك ؟

– لقد مقتُّ بيتي ! فكيف أعود إلى مكان مقته ؟!
– ومتى يعود ؟
– عندما أبني بيتاً جديدا .. ربما .. ربما يعود .
يتعجبون .. يسخرون .. يضحكون .

نقطة أخيرة :

مشت كثيراً .. كثيراً ، هدها التعب .. جلست على الرصيف .. أرخت قدميها .. أرخت جسدها كله ..أخذها الوسن إلى مملكته لينقذها من التعب والعطش .. أرخت أعصابها وهي تردد بصوت حزين .. حزين ؛ متهدج أغنية حزينة .. جموع المارة ينظرون إليها .. يتمتمون .

نامت ساعة .. ساعتين .. لا أحد يدري .. تقدم أحد المارة ليوقظها وينقذها من أمطار الشتاء ؛ لكنه اكتشف أنها ماتت !!.

حين يغير الماضي ألوانه

"لا تقتل خصمك ؛ وإنما اجلس على حافة النهر وانتظر ؛
سوف تري جثته طافية فوق الماء"
"حكمة صينية"

أنت إنسان طيب يا حامد ؛
ليت كل الناس مثلك نعم : هذه الحقيقة .

لا تقاطعني حتى لا تتعثر الكلمات في حلقي .. دعني أتحدث إليك بحرية ؛ لم يكن أي واحد منا يمت للآخر بصلة قرابة ؛ لكن المشاعر المتبادلة تنسج علاقات أقوى من روابط الدم ؛ سأصارحك بكل حقائق حياتي ؛ سأرويها لك ؛ لم أعد أستطيع أن أضع على جراحي شيئاً سواك .. إنني اعتدتك ؛ وكم تمردت على هذا الشعور وصددتك .. هل ستقدّر ما عانته امرأة تعيسة الحظ مثلي ؛ ما من خلاص من ذكريات ماضي الحزين .. إنها تطبق على صدري كقطعة صوان ؛ فلا تبارحني دون تجديد للأحزان .. إنها تهزني بعنف .. إن ما أقوله يا حامد لك ؛ ليس اعترافات لسيرة ذاتية .. فالذين يقدمون اعترافاتهم يشعرون بذنب ما ؛ ويكفِّرون عنه باعترافهم به ؛ وأنا .. أنا كنت المجني عليها في قصة تعسة . القدر مؤلفها .. إن الذين يسجلون سيرهم الذاتية أناس مهمين .. ولا أظن حياتي مهمة لدرجة تسجيل سيرتها.

قالت الأم :

توفي زوجي وتركني و"حنان " ابنتنا الوحيدة ؛ وحيدين ؛ لا أهل لا خلان ؛ لا مال .. واجهنا قسوة الحياة ؛ تعاون معنا الجيران الطيبون في تصفية حسابات زوجي التجارية وإيداع ما تبقى بعد تسديد الديون والالتزامات في البنك ؛ ليدر لنا عائداً شهرياً نعيش منه – اعذرني يا بني الدموع تنساب من عيني لا إراديا ؛ لا أجد وأنا أتذكر إلا العويل بين جنبات نفسي ؛ آه .. من المواقف التي تختزلها الذاكرة – عشنا حياة متقشفة ؛ إلى أن تخرجت "حنان" في الجامعة ، وعملت في إحدى الوظائف ؛ تقدم لها شاب تعرفت عليه من خلال عملها ؛ استشرنا الجيران .. نصحونا بعدم قبوله ؛ وأخبرناه برفضنا ؛ لكنه ؛ لم يقنع بالرفض ؛ عاد مرة أخرى وألح علينا كثيراً .. حتى لنت له ولانت " حنان " بحجة أننا في حاجة إلى رجل يحمينا .. كان شابا نحيلا لا يخلو من وسامة .. في أول معرفتنا به كان وديعا طيبا .. وتم زواجهما في نفس شقتنا . بعد عامين من زواج حنان به .. بدأت تدب بينهما الخلافات .. قال إنه يشعر بأنه ضيف في هذا البيت ؛ لأن كل شيء فيه مكتوب ومسجل باسم " حنان " .. عقد الشقة .. عقد التليفون .. عداد الكهرباء .. هو يريد أن يكتب هذه الأشياء باسمه .. وحين رفضنا هاج وماج وغادرنا ؛ ولم يرجع إلى البيت إلا بعد أن استسلمنا لرغبته .. وكثرت الخلافات

بيننا وبينه يوما بعد يوم .. ؛ إلى أن طلّق " حنان " وطردنا من شقتنا .. وفي يوم كئيب رحلنا بعد أن بعنا كل ما نملك ، حتى البيانو القديم الذي كانت تعزف عليه حنان في ساعات الصفاء .. وغادرنا الحي بل المدينة كلها إلى مدينة أخرى .

قال الجيران القدامي :

كل ما نعرفه عن حنان وأمها وأبيها الراحل أنهم أناس طيبون؛ يتمتعون بالسمعة الحسنة ؛ لكن بعد أن تزوجت " حنان " بدأت المشاكل تتزايد ؛ فكثيراً ما كنا نسمع صراخ حنان وأمها وزوج حنان ينهال عليهما ضربا بوحشية ؛ بسبب وبلا سبب ؛ فأصبحتا تخشيانه ؛ كأنه شيطان رجيم؛ كثير السهر في الخارج ؛ سمعته سيئة بين سكان الحي .. تدخلنا كثيراً في الإصلاح بينه وبين حنان وأمها ؛ لكنه رجل لا يطاق ؛ فنصحناهما بإبلاغ الشرطة ؛ لكنهما كانتا تتوهمان أنه أقوى من الشرطة وأقوى من أي شيء.. وعرفنا أنه طلق "حنان " واستولى على شقتها وفوجئنا ببيعهما الأثاث ورحيلهما .

قال صديقه الطبيب النفسي :

حنان الآن أن كل الرجال في نظرها كزوجها ؛ فمخيلتها وعقلها الباطن يختزلان صورته وهو يضربها ويطردها ؛ كوحش من وحوش الأساطير .. والدليل على خوفها منه – من الصورة أو النمط

المتخيل – خوفها من الاقتراب من الحي القديم الذي كانت تسكن فيه ؛ رغم أن به صديقاتها .. وحل هذه المشكلة بيدك أنت .

ما حدث في الحي القديم :

ذهبت إلى الحي القديم مع " حامد " أوقفت سيارتها أسفل العمارة التي كانت تقطنها ؛ رفعت رأسها ؛ تطلعت إلى أعلى ؛ لاحظت أن البيت قد ازداد قتامة وسواداً ؛ السواد كثيف على شرفة ونوافذ شقتها القديمة ؛ ما إن دلفت من باب العمارة حتى قابلت إحدى صديقات طفولتها ؛ رحبت بها ؛ احتضنتها ؛ اجتذبتها إلى شقتها وأخذت تسرد لها ما حدث بعد رحيلها : " زوجك السابق – سامحه الله – تزوج بعد طلاقك بشهور من زوجة لم يرها ولم تره قبل الزواج ؛ أنجب منها بنتين ؛ وأساء معاشرتها كما فعل معك ؛ ضربها عدة مرات ؛ فصبرت عليه ؛ عسى أن يتغير ؛ ثم ضربها مرة ؛ فأصابها بشج عميق في رأسها ؛ فاصطحبت طفلتيها وخرجت من البيت وهي تنزف دما ؛ ولم تمض ساعتان حتى جاء أهلها ؛ فضربوه ضربا مبرحا في شقته ؛ ثم ساقوه على السلالم وهو يتدحرج أمامهم؛ ثم تبادلوا ضربه وإهانته في الشارع تحت أنظار الجيران .. وأجبروه على طلاقها .. وبالفعل طلقها وأصبح كالذليل .. يندب حظه ويتوسل إلى أهل زوجته لإعادتها " لكنهم رفضوا " ؛ وأصبح لا يرى طفلتيه إلا مرة كل شهر؛ هو الآن يشكو الظلم ؛ لقد غطس صوته

القوي في بئر الهزيمة .. أما ما حدث للشقة التي اغتصبها منك ؛ فكان أشبه بانتقام إلهي حدث في مشاهد من سيناريو فيلم سجيلي ؛ الصورة فيه تغني عن الوصف .

المشهد (١) أمام باب الشقة

– لقطة عامة لأهل زوجته وهم يأخذون أثاث الشقة وينقلونه كله وهو واقف يتمتم ويتحسر .

"الكاميرا تقترب من وجهه ومن ملامحه المنكمشة"

– تسلط لقطات سريعة ومتتالية على الوجوه : رجل ضخم يقف على باب الشقة / امرأة ضخمة الملامح تضحك بسخرية / امرأة شعبية ذات مكياج صارخ تحث العمال على أن ينقلوا الأثاث بسرعة وأن يحرصوا على ألا يكسروا شيئاً منه / الجيران مجتمعون على السلالم.

– لقطة للسيارة التي تحمل الآثاث .

– لقطة للسيارة وهي تبتعد وهو واقف أمام باب العمارة وحده .

– لقطة للشقة وهي خاوية .

المشهد الثاني (٢) في مطبخ الشقة / داخلي

– لقطة قريبة من وجهه تعكس ملامح الضجر .

- لقطة لموقد الغاز والأنبوبة القديمة (على المصور أن يكون ذكيا في تركيزه على المنظم التالف)
- لقطة للنيران وهي تشب في المطبخ وتشمل الشقة .
- لقطة له وهو يقاوم النيران ويحاول اطفاءها فتحترق يده .
- لقطة لرجال المطافي وهم يحاولون إخماد النيران .

المشهد (٣) في الشقة / داخلي

- لقطة لآثار النيران على الجدران والأسقف والنوافذ والأبواب وأخشاب الأرضية .
- لقطة متوسطة ليده المحترقة الملفوفة في الشاش والضمادات .
- لقطة طويلة لمحتويات الشقة : الخشبية ؛ مقعدين قديمين ؛ موقد سبرتو ؛ عدة أكواب زجاجية .
- لقطة وهو يبكي وحيداً .

المشهد (٤) على باب الشقة ليلا " فلاش باك "

- لقطة وهو يضرب حنان ويركلها هي وأمها وهي تتدحرج على السلالم .
- لقطة لحنان وأمها ساعة رحيلهما من الشقة .
- لقطة لزوجته السابقة وأهلها وهم يضربونه ويدحرجونه على السلالم .

– لقطة وهم يأخذون الآثاث ويتركونه ذليلاً وحيداً .

لا أخفي عليك يا حامد وصديقتي تحكي لنا ما حدث ؛ كانت أنفاسي تتلاحق وصدري يعلو ويهبط .. كأنه يكسر قيودا تكبله .

حامد :

ها أنت تجعل جراحي تندمل وتحاصرني بإجاباتك على أسئلتي المبتورة ؛ المؤلمة .. كل ملامحك كانت تقف بجواري لتجعلني قوية ؛ أشق شرنقتي .

حامد :

– هل ستشتري لي بيانو جديداً ؟!

ابتسم .. تعانقت ابتسامتهما ..جالت ببصرها في الظلام ؛ السواد يتوالد باستمرار من أعماق سحيقة ؛ لكن ينبعث وميض نجم ما .. ؛ فيزحف الوميض نحو العتمة الخانقة .



امرأة في الغربة

العطاء هو الشيء الذي يثبت أنك المالك الوحيد لأي شيء ؛ فالذي لا تستطيع أن تعطيه هو الذي يتحكم فيك وتميكك أنت نفسك !

"أندريه جيد"

أمسك فرشاتي ؛ أرسم وجهك ؛ أمحو وجهك بالممحاة !!

ويلي لو أخطأت الفرشاة !

أرسم وجهي .. أمحو ملامح وجهي !

هل حقا وجهي يحمل أحزان العالم ؟!

– وجهي يخرج كل مساء ؛ يتجول في طرقات مدينتنا ؛ يغنى للعشق المقهور؛ يجفف أحزان الفقراء !

(١)

"حين التقينا"

قالت : لا تسألني أي سؤال !! لا تسألني أين بطاقة تحقيق الشخصية ؟ هل تسمح أن نشرب قدحا من شاي أو قهوة أو .. نخب عذاب لا يفنى؟ لايفنى؟ لا ترفض .. لا تتغير .. لا تتبدل .. هل تذكر كلماتك ؟!

قلت : حقا .. صار العالم أضيق مما كان !

قالت : حضورك يغسل كل عذاباتي .. يمحو كل الآهات

قلت : آه لو تدرين عذابي ! يصبح جرحا حين أراك .. الماضي يصير ضياعا حين يعانق فيك الدمع !

(٢)

منذ زمان وأنا أشعر أني أسقط ؛ أخرج من جلدي ؛ والآن لا حاضر لا مستقبل لي .. ماذا أملك ؟

كل الأيام سواء ! لاتسألني أي الأيام اليوم؟! سأجيبك : لا أعرف .. كنت أحلم بزوجٍ وديع بطفل ذي عينين واسعتين .. وبيت ذي ردهات ؛ حجرات متسعة .. آه منك يا أيها الحبيب الخائن الذي ما هان وما نسيته .. ها أنت وعدت وأخلفت الوعد .. خبرني هل حبي لم يولد بعد ؟

قلت : أحبك بجنون .. أحبك حتى آخر لحظات العمر ..

رغم اعترافي لها بحبي ؛ كنت أعرف أنها لن تصدقني ؛ لأنني لا أصدق نفسي !

(٣)

"حين افترقنا"

قالت : ماذا يعني أن يفقد أغلى ما يملكه الإنسان ؟

قلت : أن يحيا بدون وجود .

قالت : ما عادت كلماتك تجدي ؛ هذا ليس زمان الحكمة ، هذا زمانك .

"خاتمة"

أتمرد .. أنزع ثوب الوهن .. أحاول هدم سجوني .. ما عاد الصمت يفيد ؛ ماذا يعني الصمت ؟ !!

– من يصمت لا يعي سر الأشياء .

المارد الذي مات

عند مفترق كل طريق أرى ذلك الوجه .. أيكون مجرد كابوس مزعج!!

أصحو فزعاً من نومي .. أراه يجرني إلى بئر مرعبة .. ينطلق بي عبر بيداء لا نهاية لها .. أسمع صوته عواء مخيفاً .. تهتز أعصابي .. أعرف أن أنيابه تتربص بي .. يراود فكري دائماً .. أحياناً يعيش الإنسان مكبلا بالسلاسل ولا يشعر بذلك .. أغيب عن دوامته الفظيعة التي تدوخني .. تجعل أعصابي مهترئة .. أرى وجهي في المرآة غارقاً في الأرق ..خلفي واقفاً يبتسم بسخرية .. يخرج لسانه .. أغرق في بحار الدهشة والرعب .. أحيانا أخاف أن أضعف .. أهتز .. أنزلق مثل مئات البشر في بئره الذي لا قرار له .. أخشى أن أنهار .. أتمتم في نفسي " لابد أن أرفض تدخله في حياتي " يصرخ في وجهي.

– إلى متى ستستمر مقاومتك ؟ سيأتي اليوم الذي تستسلم فيه ..أنصحك ألا تخدع .. نفسك مقاومتك درب من العبث أو قل من الجنون .

أسأل نفسك بأسى وشك :" أليست المقاومة أمراً مضحكاً.. سخيفاً "؟

غاب عني لفترة من الزمن .. لست أدري أين كان ؟ أو لماذا غاب ؟ هذه المسألة لم أشغل نفسي بها ؛ حتى لا أتعب أعصابي .. رأيته مرة أو مرتين بطريق المصادفة .

لكن : عندما وجدت نفسي أمام قرار خطير في حياتي .. عاد يتأملني بصمت .. حاول أن يخترق فكري .. عندما أحس بفشله بدأ يتكلم مستعيرا طريقة الواعظ الناصح، لكنه فشل أيضا ، لا يجد مني أذناً مصغية .. حاصرني .. أعصابي توترت .. أعلم جيدا أنه لا يستطيع أن يضع لبنة فوق لبنة ، رغم وسامته وطريقته المعسولة في الاقناع .

ما بالي اليوم أتركه يعبث بي !!

أنصت له وأنا أفكر ؛ أي القرارين أتخذ ؟! إنني ضائعة .. تائهة.. يسخر من ترددي .. فكري صار خيمة بلا أوتاد .. تتغلغل إغراءاته داخلي بفظاعة ..أذرعه كأذرع الأخطبوط تعتصرني .. صوته يهمس .. يوسوس لي .

أفقتُ .. عدتُ إلى إيماني أكثر صلابة .. اتخذت قراري .. مع أول شعاع للشمس .. وجدته يتقهقر ، رأيته يذوب ويذوب .

لا تؤاخذني على صراحتي

الطريق

صدقني : يمكن أن تصل إلى ما تريد دون أن يتعرضوا لك .. لا تقل إن هذا من المستحيل أو أني واهم .. يا صديقي : أنت لا تعرف هؤلاء كما أعرفهم .. التجارب علمتني الكثير .. لا تؤاخذني على صراحتي .. هيا انطلق ؛ واصل المسير ولا تخف .. عندما تقترب منهم ؛ سيتصدون لك .. دعهم يشتمون .. يتفوهون بكلمات مغلولة .. يهتفون بشعاراتهم .. إذا اقتربوا منك .. والتفوا حولك .. وحاصروك .. لا تبال .. أصرخ فيهم تزيد رهبتهم منك .. لا تخش العصا التي في أيديهم .. لا تخش الحجارة ولا القضبان الحديدية .. كانوا قديماً يثورون .. يثأرون .. أما الآن .. لا تنتظر منهم غير الخوف !!

الهزيمة

نزل من بيته مسرعا .. عانقت قدماه أرض الشارع .. إلى أين؟ .. لا يدري !! كل ما يوده الآن أن يكون بعيداً عن أعين الناس .. شعر بالتعب يغمره من رأسه حتى أخمص قدميه .. الضجر جاثم

على صدره .. الألم ينخر في رأسه كدودة نشيطة .. طوال حياته يشعر أنه منزو انزواءً في ركن قصي من الحياة .. تمتم في نفسه "ملعون جمالها ومالها" .

إلى متى ستظل كرامته مشروخة أمام نفسه ؟ لقد ملّ من الحياة .. تجرع المهانة إلى حد الثمالة .. بتر أفكاره .. انتقض قائلاً في ذاته :

لابد أن أقوّم هذه المرأة ؛ كفاني خضوعاً واستسلاما " قفل عائدا .. دس المفتاح في الباب .. لم يجدها في الصالة .. تمنى لو قابلها تلك اللحظة .. وصفعها .. يجذبها من شعرها .. انسل داخلا .. قابلته زوجته .. صرخت في وجهه :

– أين كنت ؟

– نظر إليها بعينين مشدوهتين .. الشرر يتطاير منهما .. ثم ما لبث أن تلاشى كل ذلك .. ولم يبق على وجهه إلا ابتسامه مشوبة بغمامة قاتمة .. دلف إلى الداخل صامتا .. متخاذلا .

الصعود

شعرت برائحة ما تصل إلى أنفها .. كلما صعدت السلم ؛ ازدادت الرائحة .. رائحة عفنة تغمر المكان .. لا تدري لماذا تذكرت أول مرة صعدت فيها سلم مثل الذي تصعده الآن ؛ كانت يومها خائفة .. وجلة شاحبة اللون .

وقفت أمام إحدى الشقق .. ضغطت على زر جرس الباب .. فتح الباب .. رحب بها .. وهناك أضاء المصباح .. في خضم النشوة؛ لا تدري لماذا تذكرت أول رجل أضاء المصباح وهي تطفئه!!

بعد أن انتهى كل شيء .. استلقى الرجل بارتياح ؛ قامت بخفة الغزال ارتدت ملابسها .. فتح الرجل حقيبتها .. وضع فيها عددا من الأوراق المالية ؛ ودّعها بابتسامة لم تفهم معناها .. واصلت رحلتها في صعود درجات السلم .

الملامح القديمة

قمتُ من نومي مبكراً كعادتي .. توضأت وصليت .. استيقظت زوجتي وأولادي .. البيت أصبح يعج بالحركة والنشاط كخلية نحل .. دلفت إلى حجرتي .. ارتديت ملابسي .. نظرت في المرآة .. عجبا .. وجدت وجهي ملامحه منكمشة .. شاربي يكاد يختفي وسط تجاعيد لم أرها من قبل .. عيناي ؛ كأنهما عيني شخص آخر غيري ؛ كأنني ألبس قناعا يواري ملامحي الحقيقية .. تعجبت مما رأيت .. ظننت أن عيني قد خدعتني ؛ فخيلت لي ما لا وجود له .. مسحت عيني بعناية بالغة ؛ تفرست من جديد ملامح وجهي في المرآه .. لكن .. لا فائدة ! وجهي لا يزال يبدو منكمشا .. خرجت قاصدا عملي ؛ لكن ما رأيته كان عجيبا حقاً .. الناس في

الشارع وجوههم منبعجة منكمشة .. تأملت وجوه زملائي وزميلاتي في العمل وجدت وجوههم منكمشة أيضاً .. لاشك أن مرضاً ما .. أصاب عيناي ؛ فتخيلان لي ما لا وجود له .. قررت أن أذهب إلى طبيب .. لكن خاب ظني؛ بعد فحص دقيق .. وطويل ؛ أخبرني أن عيناي لا يوجد بهما أي مرض أو أعراض أي مرض .. إنما ما يعتريني مجرد وسواس .

في بداية حياتي كنت شعلة متأججة من الحماس للحق .. نعم يا سيدي : خنتُ مبادئي .. كنت أريد أن أقول هذا للطبيب لكني لم أقله !!

في الليل : كنت أسير وحدي في الطرقات بلا هدف .

عندما صمتوا

دائما ترتعش على شفتيها عشرات الأسئلة التي لا تجد لها إجابة .. عندما خرجت من بيتها إلى عملها لاحظت وهي تسير في الحارة التي تسكن فيها .. الأطفال يلعبون بعصفور صغير ربطوا قدميه .. والنساء جالسات على المصاطب يرغين ويحكين حكايات قديمة .. والرجال على المقهي يدخنون النرجيلة ويثرثرون ؛ وفي المساء .. عندما عادت من عملها .. وجدت الصغار يبكون .. العصفور قد مات !! والنساء صامتات والرجال صامتون !! لا تدري لماذا ؟ لكنها أحست أنهم جميعاً يجمعهم جرح واحد .

الحلم

تقابلا للمرة الأولى .. سعدت بلقائه .. حدثته عن حياتها وأسرتها الصغيرة .. حدثته عن أبيها الذي هجر البيت منذ خمسة عشر عاما وتزوج من فتاة صغيرة كانت تعمل خادمة عندهم .. وحدثته عن أمها التي مازالت تحلم بعودة الزوج المهاجر .. وحدثته عن زوجة أخيها التي تحلم بمجيء طفل صغير ؛ ومازالت تجوب عيادات الأطباء من أجل ذلك .. حدثته عن أشياء كثيرة .. عندما سألها عن أمانيها .. قالت :

– أتمنى أن أصبح كاتبة مشهورة مثلك .

ابتسم ابتسامة باهتة .. وعندما ودّعها .. سار وحده حزينا وتساءل :

– ماذا يحدث إذا لم يرجع الأب المهاجر إلى زوجته ؟

– ماذا يحدث إذا لم تنجب زوجة أخيها الطفل الذي تحلم به ؟

– ماذا يحدث لو لم تتحقق أمنيتها بأن تصبح كاتبة مشهورة ؟

ويستمر العرض

كان يقف في مواجهة الجمهور على مقدمة خشبة المسرح .. " تلاشى ما في نفسي من أمل . عندما عانقت أحلامي واقعكم انتحرت ! سأنسحب وياليتني انسحبت منذ زمن طويل " .. كان هذا كل ما يقوله في دوره في المسرحية التي تعرض منذ شهور .. وما أن

انتهى – في ذلك اليوم – من آخر كلمة في دوره حتى سقط على المسرح بعد أن خنقته الدموع .. صفق له الجمهور .. مرت دقيقة . دقيقتان .. ثلاثا ولم يقم من سقوطه .. ساد الصمت .. صرخ المخرج بدهشة :

قم يا رجل كفى .. ستفسد المسرحية !!

همس المخرج أشبه بالصراخ .. اقترب أحد الممثلين بحركة غير مفتعلة هزه . جس نبضه . وجده قد مات !! جذبوه إلى خارج المسرح .. ليستمر العرض .. وفي اليوم الثاني . جاءوا بممثل جديد، ليمثل نفس الدور .

الأخرس

حقد دفين في صدورهم .. تعكسه نظراتهم الكريهة .. نظرت إلى السماء .. وجدتها شاحبة .. قمت من بينهم .. ارتفعت ضحكاتهم .. صرخت فيهم .. فازدادت قهقهاتهم .. هربت منهم .. لاحقتني طفلة صغيرة .. سألتني عن سبب هروبي .. قلت لها وأنا أتأمل وجهها البريء : أنا أخرس!!

الذكرى

عندما حل المساء .. كانت تجلس في الصالة الواسعة على إحدى الآرائك .. وحولها أولادها الثلاثة يواجههم التليفزيون ..

قامت من جلستها .. أغلقت التليفزيون .. شيء ما خطر بذهنها .. الخطوط تتوازي والذكرى سعادة سرابية .. قامت .. اتجهت ناحية غرفة نومها .. فتحت بابها .. فاستسلمت ذاكرتها المنقادة لدبيب مجسات غامضة .. فتحت بوابات الذاكرة .. تأملت محتويات الغرفة .. السرير .. الدولاب .. المرآة .. وثبت الرغبة داخلها .. محمومة .. متشابكة الغصون ، فأجهشت باكية .

حيرة

يتبخر كربي .. يفارق غرفة نومي الهم .. يتلاشى حزني في أحزان الناس .

– وما جدوى أن تبكي وحدك .. أن تقتلك الحيرة واليأس والخوف من الأيام الآتية المخزونة في جوف الغيب المجهول ؟ !

ماعدت أهاب دقات الساعة .. كان قديما يعصف بي أن تغرب شمس .. أن يتلاشى قمر !!

– ما جدوى أن تمكث وحدك خلف الباب وتبكي وحدك ؟

ما عاد زماني زمن الفرح .. إني أستيقظ فوق جفاف لا ينبت إلا الحيرة واليأس وأحزان الغرباء .

من أوراق امرأة تنتظر

"قد تُخلق المرأة لتكون جميلة ؛ ولكن جمالها لا يتفتح إلا
بعد أن يتفتح قلبها للحب "
لابروبيبر

الورقة الأولي :

يا أغلى الناس عندي ؛ يا أيها الرجل الذي ينام في ذاكرتي ، ويبحر في أعصابي ويسبح في شراييني وأوردتي .. يا من يملأ راحة القلب وحدقة العين .. لماذا في صوتك اتهام لي بضعف الشخصية والسلبية ؟

الورقة الثانية :

كنت أراقبك من بعيد صامتة ؛ أراقب صمتك .. حديثك .. انفعالك .. ضحكاتك .. ملامح وجهك ؛ أتساءل بيني وبين نفسي .. أي سر يكمن في انجذابي إليك ؟ لماذا وجهك يختلف عن كل الوجوه عندي ؟

الورقة الثالثة :

أرقص في حلبة ؛ الجميع يصفقون لي ؛ معجبين ؛ مبهورين ؛ متيمين .. الزحام يتكاثف حولي والتصفيق يزداد ؛ آه من تصفيقهم !؛ يجعلني أشعر بنشوة غريبة ؛ أدور وأدور ؛ أتمايل رغما عني ؛ أتخبط بين جدران لا يبصرها غيري .. وحيدة رغم كل هؤلاء الذين

حولي .. ألم تبصرهم ؟! رأيتك تشق الزحام وتخترق كل الحواجز بعناد غريب وتمسكني من يدي بقوة ؛ أحاول أن أهرب من قبضتك؛ فتشدها أكثر .. تجذبني إلى خارج الحلبة ؛ الناس يتمتمون ؛ تزعق فيّ : – غبية .. سرت رعشة في أوصالي ؛ من أنت .. من أنت كي تجرؤ على اقتحام عالمي ؛ من يجرؤ أن .. ماتت الكلمات في حلقي .. روحي طارت من مكان مرتفع إلى مكان أكثر ارتفاعا .. هل أنا غبية حقاً ؟! هذه أول مرة أسمعها .. لا إنك مغرور ؛ مجنون .. قلت بهدوء وأنت تمعن التحديق في ملامحي :

– رغم كل شيء وأي شيء أنت مازلت صغيرة .

إنني أذوب تحت وطأة كلماتك .. أتأمل عينيك الآسرتين ؛ أوغل فيهما ؛ فتضيع كل الأشياء وكل الأسماء ولا يبقى إلا أنت .. اسمك أنت .

الورقة الرابعة :

أراني معك وحدك ؛ ألملم بعضي ؛ أتماسك ؛ أشعر بمدى ضعفي واضمحلال معارفي وتجاربي أمامك .. أسالك وأنت المجرب ؛ فتجيب بوثوق وهدوء ؛ أتمتم وأومئ برأسي ساخرة مشككة ؛ أجدك أكبر من ضعفي .. أتهيب نشر خبايا نفسي أمامك ؛ فتنشرها أنت أمامي ؛ بجرأة لم أكن أتخيلها فيك ؛ تعريني أمام نفسي !!

تستوقفني ؛ تعاتبني ؛ أحس أنك لا تريد أن تخرجني من صدرك بقايا مرثية حزينة .. إنني أصارحك يا نفسي إنني خائفة منك .. خائفة من حماقتك وغبائك .. آه آآآه .. بيني وبينك أيها الحبيب مدد طويل مقفر ؛ أحقا ستكون لي ؟!

انشراخات عنيفة تهدد انهيار نفسي .. أهرب منك .. أبحث عن بديل ؛ عن شبيه لك ؛ لكن يخيب ظني ؛ لا شبيه لك ؛ إنك موجود في كياني في كل لحظة .

أنت يا أنت .. نبشت كل مرافئ الدنيا ؛ أبحث عن هوية لي فوجدتك هويتي .. يشككون في صدقك ؛ العيون تنظر اليك بحقد واستخفاف ولعنة؛ تتربص بك الأيدي الخفية التي تحطم وتعذب وتعتقل وتقتل .. وأنت تشق طريقك بإصرار وعناد ؛ أشك فيك ؛ لمست أني أطعنك بشكي وأن حبك لي هو ضعفك .. تصرخ فيَّ نفسي : إلى متى تستمرين في ضعفك ؛ إنه حبيبك الذي أخلص لك في حاجة إلى نصرتك لكني أتمادى في ضعفي ؛ فتكون تصرفاتي وكلماتي نصلا ينال منك أكثر وأكثر ؛ وأنت تتحمل كل هذا بجلد وصبر .. ألوم نفسي على حماقتي وغبائي !! نعم : أنا غبية بعد كل هذا أتساءل : هل أنا حقا جديرة بحبك لي ؟ .. يأتيني صوتك : مازلت صغيرة .

الورقة الخامسة :

مازلت سابحة في جزرك المرجانية ؛ أسيرة في لجتك الفيروزية؛ مسحورة ببريق صدقك وجوهر إخلاصك .. أدمنتك والمدمن لا يريد أن يشفى .. ترشقني الحراب ؛ المسنونة ؛ المهووشة ؛ أكاد أسقط ؛ تمسكني بحنان ؛ رغم أن جراحك أكثر وأعمق من جرحي ؛ خبرني يا رجل من أين لك هذا الصمود ؟ .. يتقاذفني الحلم إلى بحار لا شطآن لها ، تمسك كفي بحنان ؛ أحسه يسري في أوصالي ؛ أصغي إلى الدفء المنبعث من صوتك وأنت تفضي إليّ بمكنونات نفسك .

الورقة السادسة :

أنا الآن أقبع في غرفتي التي تبدو قبرا ؛ يتميز عن كل القبور بأن فيه إنسانة تتنفس وتحلم وتتألم .. أشعر بمدى عمق كلماتك " السكوت موت بارد ": أشعر بذلك الموت بين الجدران الصماء .. تؤنسني روحك كل ليلة؛ فيتوقف نزيف الألم في مشاعري ؛ يرتعش جسدي كعصفور صغير بلله الماء ؛ في حاجة إلى دفئك ؛ ليتك تأخذني في أحضانك ؛ بين ضلوعك .. يتناهى إلى سمعي لحن عذب سمعناه معا .. تجلدني الذكرى بسياط شوقي إليك ؛ هذه حقيقة "والحقائق لا تجادل" هكذا علمتني .. انتظر مجيئك .

إنني أعيش انتظارا مريرا أشعر أنه لا نهاية له .

أفتح نافذة حجرتي ؛ التي تعرفها ؛ ليتك تمر الآن .

أيها السيد الجليل ؛ الرائع الصادق ؛ الشفاف ؛ النقي ؛ لا أحد بصدري إلاك .



مع سبق الإصرار والترصد



(١)

الظلام يعربد .. الرياح تزمجر .. تصنع دوامات من التراب تعلو .. وتعلو ؛ تعانق البيوت الكثيرة .. فاجأها بطعنة في الصدر .. رفعت نظرها إليه ذاهلة ؛ كأنها لا تصدق .. طعنها طعنة ثانية وثالثة ورابعة و .. هرب النبض من جسدها .

هل النجوم قد رحلت ؟ وهل الظلال مضت من غير عودة ؟ غارقة في بحيرة من سائل الحياة القاني .. عيناها جاحظتان ؛ تتأملان المدية التي في يده .. سال اللعاب من فمه .. وفي صمت حزين .. حزين بدأ ينزف دموعاً ! يتأمل أركان الحجرة ؛ يتأمل السرير الوردي الذي جمعهما ساعات الصفاء ؛ وساعات الحزن والضياع ؛ تأمل الستارة المطرزة بخيوط وردية ؛ كم كانت له ذكريات في هذه الحجرة معها في ساعة الاشتهاء والشبق ! قبض على المدية ؛ شدد من قبضته عليها ؛ بدأ يطعن السرير .. وقف عليه وظل يطعن الستارة .. تمزقت .. فلتت طعنة إلى زجاج النافذة الواقعة خلف الستارة ؛ فانكسر الزجاج ؛ فدخلت الريح الغاضبة .. هائجة .. لا ضفاف لها .. استدار .. مسح دموعه ولعابه بكم قميصه جلس بجوارها .. قبلها

بشفتين مرتعشتين .. ألصق شفتيه بشفتيها القرمزيتين تمدد في بحيرة الدم بجوارها .

(٢)

أيقظه ..

– لقد قتلتها كما قلت لك !

– نعم ..

– أرأيت .. كيف أن الإنسان يتحول في لحظة إلى قاتل !!

– ....

– حاول أن تزيل آثار الدماء التي على يديك .

نظر إلى يديه ؛ تأملهما .. تحسس كف يده اليمنى بكف يده اليسرى .. قال وهو ذاهل :

– هل دماؤها دنسة ؟

– ....

(٣)

قال المحقق :

– هي زوجتك إذن ..

– نعم

– لماذا قتلتها ؟

نظر إلى المحقق نظرة ساخرة.. ولم يتكلم ..ارتفع صوت المحقق :

– انطق .. لماذا قتلتها ؟

لم يتكلم .. ازدادت نظراته سخرية .

– لابد أن تتكلم .. الصمت ليس في صالحك .

– لابد أن تعلم خطورة التهمة الموجهة إليك .. القتل مع سبق الإصرار والترصد !

هز رأسه وقال : نعم .. قتلتها !

– ما الدافع وراء ارتكابك جريمة القتل ؟

ارتفع صوته .. قال بسخرية مريرة :

– ماذا يهمك من الدافع ، فالنتيجة واحدة !

– أجب بوضوح .

– لقد كانت ميتة وهي معي .. وانتقلت من موت إلى موت .

– هل لديك أقوال أخرى ؟

– لا ..

(٤)

في الزنزانة .. بدأ يقرأ سطور رسالة قديمة كانت قد بعثت بها إليه قبل أن يتزوجا .. " سنلتقي ونتوحد ؛ لكن إذا صارت الوجوه مشوّهة .. منبعجة تحت وطأة الحقد والطمع اقتلني .. لأنك عندما

تقتلني ؛ فإنك تطهرني وتقيني شر هذا العالم .. وتطهر حبنا " . بكي بحرقة " لقد انطفأت عيونك يا منبع الجمال والأمان والصدق .. كنت ضعيفا لم أستطع أن أحمي نبع الأمل في عينيك ولا صحوك الرائع ".

علياء .. رغم أني قتلتك ، لا تزالين تعويذتي المشتهاة .. وانكساري وضعفي وقوتي وجبروتي .. أركض إليك .. إلى صدرك الحنون ؛ فافتحي الأبواب ولا توصديها دوني " .

(٥)

يضحك رفاق زنزانته منه .. يتغامزون .. يتندرون .. يقتل امرأته لأنه يحبها .. يا للعجب ؟؟ .

رد عليهم :

– أتراني أكذب !

– أجاب أحدهم :

– لا سمح الله .. !

سأله واحد منهم :

– كيف قتلتها ؟

– اشتريت مدية ؛ وفاجأتها وطعنتها عدة طعنات لا أذكر عددها ؛ لكني أذكر أننا كنا في ذروة

لحظات الحب والنشوة .

- لماذا قتلتها ؟

- ....

غرق في الصمت ..

- لأنها تخونك مع غيرك .

أجاب بانفعال :

- لا .. لا .

- لأنك تكرهها ...

- لا .. إنني أحب .. صمت .. نظروا إليه بذهول وتعجب وحيرة.

(٦)

قال القاضي بحزم :

- أنت تعترف إذن بقتل زوجتك ؟

أجاب بإصرار :

- نعم ..

قال القاضي :

- لقد قلت في التحقيق أنك قتلتها لأنك تحبها .. ما معنى هذا؟

أجاب :

- معناه لا يفهمه أمثالكم .. وإذا شرحته لكم لن تفهموه !

ارتفع اللغط في قاعة المحكمة .

سأله القاضي :

– هل معك من يدافع عنك ؟ أشار بإبهامه إلى اللا شيء وقال :
– نعم .. ستدافع هي عني .. اسمعوها إنها تتكلم .. " لا تشنقوه .. فمحاكمتكم ظالمة .. اسمعوه .. ربما .. ربما تنصفوه وربما تنتهي بعض المهازل .. وتنتهي بعض الأحزان ؛ إني أحذركم من أن تنطمس المعالم وتتوارى خلف ركام الظلم ياحماة العدل..!! ".
– مط القاضي شفتيه بسخرية وقال:
– يرسل المتهم (.....) إلى مستشفى الأمراض العقلية .

الرهان على جواد ميت



"إن اهتمامي الأول كان دائماً يتعلق بالإحساس
بالظلم واتخاذ موقف مضاد له"
"جورج أوريل"

"الإنسان وحده يستطيع أن ينتصر إذا كان ينوي بحزم أن
يهب حياته إلى القضية التي يحارب من أجلها"
"تيتو"

كنت أتمنى أن أرفع يدي ملوحاً لها وأنا أبتسم ابتسامة مسرحية ؛ ساخرة وأقول لها : وداعا .

وألحق القطار قبل أن ينطلق بدوني .. كنت أتمنى أن تعرف أنه لا ذنب لي في هجرها .. وإنما الذنب ذنبها وحتماً ستدركه في يوم من الأيام .

أيها السادة :

اعذروني لتناقضي ؛ رغم رغبتي في الرحيل عنها إلا أنني لا أستطيع أن أقدم على هذه الخطوة ؛ أعرف ما يدور بأذهانكم .. ستقولون عني : رجل جبان ؛ مخبول .

قولوا ما شئتم .. لكن كل ما أعرفه أنني أعيش عذابا من جراء تناقضي.

(١)

"حاول أن تتذكر البداية"

ياحضرات القضاة : لماذا تصرون على سماع أقوالي ؟ أتظنون أني سأدينها أمامكم !! لا – والله – لا أستطيع . . حاولوا أن تقدروا ضعف رجل تحول الحب في نفسه إلى قضية جماعية .

قصة حب تتكرر آلاف المرات ؛ آلاف المرات كل يوم بين رجل وامرأة .. وأنا – يا قضاتي – رجل بايع امرأة تسمى " علياء" على الصدق وكان صادقا في بيعته . وعدته بالصدق ؛ وكل الأدلة تقول إنها نكثت بعهدها .

منذ أول لقاء سألتها :

– أين أنا منك ؟

قالت :

– بإمكانك أن تكون كل شيء بالنسبة لي .

آه من وجع الذاكرة ..

أتذكر شهرتي بين طلاب مدرستي ؛ كان يرضي غروري المراهق التفاف زملائي وزميلاتي حولي ؛ كلمات الإعجاب تعانق سمعي من الحسناوات .. ربما تقولون إن بداياتي تنم عن أنني نرجسي – قولوا ما شئتم – كنت عندما أسأل عن اسمي ؛ أنطقه

بتمهل .. أضغط على حروفه ؛ كأنني أبين للمستمع مدى خطورته وأهميته .

"علياء" كنت أسبقها بسنوات ؛ تسرع الخطى من بين صفوف الطالبات تتسلم شهادات التقدير على تفوقها .. ذكية أنت!! أليس كذلك؟! لكن : لماذا تصرفت بغباء وحماقة سخيين معي ؟ آه منك ..يا سرطاناً يسري في دمي ..

آه منك ..

يا أول امرأة أثق فيها، وأول امرأة غدرت بي .

وانطلق القطار .. ورحل بي ؛ خبطات عجلاته المنتظمة على القضبان تتخم نفسي ؛ تعطيني إحساسا بالتكرار السقيم ؛ تبحر بي في رحلة لا منتهى لها.

(٢)

حضورك في هذه الدنيا أحدث انقلابا في نفسي زلزل أركان حياتي .. أنا الذي منحتك الأمان ولم أبخل بالصدق .. تركتني أخيرا ؛ أغوص وأغوص إلى أن قاربت على الغرق . منيت نفسي بأن الذي يغوص أكثر وأكثر سيجد اللؤلؤ والمرجان .. لكنني لم أجد إلا خيبة الأمل تنتظرني .

أخذت الحب يا غالية وتركت لي نكهة الثورة وطوفان البحر . أتذكرين :

حينما وجدت معي كتاب " الوعي والثورة " سألتني : لماذا الثورة ؟

ولم تسأليني لماذا الوعي ؟

الوعي ؛ لو كنت وعيته ما سلمتني لجلاد العذاب ولكلماتك التي تطلقينها كالقذائف ؛ فتنال مني دون أن تدرين !

أحدثك عن أسماء كتب ، عناوين موسوعات ، روايات ، زعماء، شعراء .. تنصتين إليّ بانبهار شديد ؛ كأني أحدثك عن عالم " ألف ليلة وليلة ".. أحدثك عن الذين صمدوا وضحوا بالغالي ؛ وتتعجبين :

– كأنك تحدثني عن نفسك .

– أصدقائي هم مرآة ذاتي .

عندما أحدثك عن واحد من أصحاب المبادئ تنجذبين لحديثي ؛ لكنك ؛ تقطبين جبينك دهشة وعدم تصديق ؛ عندما أقول لك : وأخيرا اغتالوه .

باب الحلم ينفتح .. والذكريات الموجعة تندفع كشلال لا سدود ؛ أمامه .. والتفجع سهل ؛ لكن ما أقسى لحظات الفجيعة للذي عاشها ؛ تجعل بندول الساعة يتوقف .

حَلمنا : أتذكرين ؟ أم أنك كسائر الناس عندما يستيقظون ينسون أحلامهم!!

ألـم أقـل لـك : أريـدك امـرأة غيـر عاديـة .. تقطبـين جبينـك كعادتك وأغوص وحدي في ظلمات الحيرة .

حلمنا .. نعم .

نعم .. حلمنا .

بيـت واسـع الردهـات .. واسـع الحجـرات .. وطفلـة واسـعة العينين ؛ قمرية الوجه ؛ شقراء الجدائل ..

عندما حاولت أن أذكرك بها ؛ قلت باستغراب : هل حقا ما زلت تذكرها؟!

يا لسؤالك الساذج !!

توقف القطار في إحدى المحطات ؛ صعد ركاب جدد ونزل ركـاب منـه .. وانطلـق .. فـي عربـة القطـار التـي كنـت جالـسا فيهـا لمـست نـشاط الركـاب الجـدد ؛ انـضموا إلينـا .. تكونـت ألفـة بينـي وبينهم .. تحدثنا في الأدب والسياسة والتاريخ والفلسفة .. وعندما عرفوا أنني صاحب قلم ؛ لا أستطيع أن أصف لك مدى فرحتهم ؛ فرحة قوم ضلوا بنبي .

قالوا : ستعبر عنا .. ستخمش الليل .

(٣)

"علياء" همومها بسيطة ؛ قالت: حياتي محدودة المساحة ؛ كل يوم أذهب إلى الكلية ومنها أعود للبيت.. وهكذا كل يوم أمارس روتينا يوميا .

تحـدثني عـن صـعوبة مـادة " الميكانيكـا " التـي تدرسـها ؛ فأحدثها عن عمال المصانع البسطاء الذين لم ينالوا أبسط حقوقهم؛ وعندما تمردوا ؛ قبض عليهم ولفقت لهم التهم والجنايات .

تحدثني عـن صعوبة استخدام " الآلات الحاسـبة " فأحـدثها عن أهمية الوعي والثورة .

تحدثني عن تفوق زميل لها كل عام ؛ فأعطيها صورة من مقال تناولت فيه إحدى قضايا التزوير .. تمسك ورقة الجريدة المنشور بها المقال ؛ تحاول فك رموز الحروف التي تبدو أمام عينيها ألغازا .. لا تناقشني، لا تسألني .. تحدثني عن خطبة "عفاف" وخطيبها الذي سافر إلى السعودية ثاني يوم خطبتهما !!

أتقوقع في ذاتي .. أجمع شتات صبري .. تقول : لستُ غبية إلى درجة عدم فهمك ..أبتسم بانكسار ؛ أشعر أني مشلول في لساني وأعصابي .. أصمت .. تقطع صمتي بقولها : لماذا تحاول دائما أن تثبت عجزي .

القطار يتلوى كثعبان ؛ عيناه تبرقان في الظلام .. المزارع؛ القرى تبدو على طول الخط الحديدي من خلال نافذة مغبرة ؛ يكسوها ظلام الليل ؛ ترتفع الموسيقى ؛ ويرتفع صوت الكورال : بلادي .. بلادي لك حبي وفؤادي .

سألت نادية : لماذا كل هذا الحزن ؟

قالت : لاتنكأ الجراح بأسئلتك ! !

اغرورقت عيناها بالدموع وهي تقول : هل يظنون أنهم عندما ينالون أجسادنا قد انتصروا ؟

وقفت ؛ أمسكت بطرف بلوزتها ؛ رفعتها إلى أعلى صدرها..أدارت ظهرها لي .. رأيتُ على الجسد الأبيض الأنثوي آثار جروح متقاطعة ؛ استدارت .. أشارت إلى أسفل بطنها: حتى هنا .. نظرت من نافذة القطار ؛ وجدت السماء قاتمة السواد .

(٤)

لم أستطع أن أكون عميلا .. لا أرغب في أن أكون واحداً منهم ؛ حاولي أن تفهمي !!

إني أحترق ألما وأنت لا تدرين .. علاقتي بك غيرت موازين حياتي؛ وأخشى أن تعلميني الخوف ؛ فأتقهقر .. هل حقا عرفت كيف أفكر ؟ هل حقا عرفت ابتسامتي ليس لدرجة أنك تقلدينها ؛ بل أصبحت هي ابتسامتك . أتعرفين أنني تحت عيونهم دائما .. لا تندهشي أو يعتري ملامحك الشك في صدق ما أقول أو يعتريك الخوف .

دوي صفير القطار ..

.. أبحر في تيه عابق بالمرارة والقلق .

استدعوني ؛ قالوا :

– اسـمك موجـود لـدينا ضـمن قائمـة طويلـة منـذ سـنوات ؛ وقـد نـصحناك أكثـر مـن مـرة بطريقـة غيـر مباشـرة بالبعـد عـن الـسياسة والتيارات الهدامة ؛ لكن يبدو أن النصيحة لا تجدي معك .

لم أفهم منطقهم ؛ لكني فهمت أنهم يهددونني ويتوعدونني.. سألت :

– هل هناك تهمة محددة موجهة إليّ ؟

– التـرويج لأفكـار هدامـة أليـست تهمـة ؟! ننـصحك ألا تـضيّع مستقبلك من أجل حماقات ؛ ما المانع في أن تتعاون معنا ؟!

– لا أستطيع ..

(٥)

.. رغم المرارة في حلقي ؛ أمسك القلم ؛ أكتب إليك رسائل تفوح بعبير الشوق .. أشكو إليك خوفي من ضعفي .. فأنا رجل لا أعـرف الحالـة الوسـطى بـين الأشـياء .. لا أعـرف سـوى لـونين .. الأبيض والأسود .. لا أعرف اللون الرمادي الذي يخيم على حياتنا الآن .

و نلتقي .. و نلتقي ..

تتعـانق أيـدينا ، يخيـل إلـيّ أنهـا تتحـد ؛ أن خطانـا تـسير فـي طريق واحد ؛ مازال طعم كلمات " علياء " في أذني وشوقي لسماعها يجلدني :

– أحبك أكثر من ذاتي .

– أتمنى ألا تكوني امرأة من النوع الزئبقي المتقلب .

– ....

يا نهراً من دفء وحنان .

يا وجهاً يرشف منه البدر العشق .

ويأخذ من عينيك النجلاوين السحر؛ ليروي قلوب العشاق ويسكرهم..

يا وجها يحملني لبلاد أسطورية .

وتجيئين .. تغنين .. نسهر .. نتسامر عند بيوت الناس الفقراء .

حينما توقف القطار في إحدى محطاته .. وجدتها تنتظرني .. قالت :

– سأنتظرك في كل محطات العمر .

ذاتي أنت .. مرآتي .. تراتيل صلاتي .

أأسلوك .. !!

كيف وأنت الحياة ؟!

مازلت ترانيم النجوى والسلوى .

لك العمر قنديل وزيت

ارتفع صفير القطار المتحشرج .. أمسكت بيدها ؛ تركتها تنام بين يدي في سكون ودعة ؛ عيونها يفيض منها الحزن والخوف ؛

تمنيت أن أعانقها .. إنها مثلي ؛ في حاجة إلى زاد العناق ؛ لكني لم أفعل .. لا أدري لماذا ؟

قلت : أحبك جداً :

ابتسمت .. بدأ القطار يتحرك ؛ وأنا بداخله أرحل وحيداً ؛ ويدها الصغيرة تلوح لي .

(٦)

بحرٌ عاتٍ وجهك ..

طوفان مجنون ؛ يعرف كيف يدمر !!

صرخ أحدهم :

– من أنت ؟ من تكون ؟ أنت لا شيء .. أنت تعيش في وهم كبير " علياء " خانتك ؛ خانتك ؛ لقد

وثقت بنا وباحت بأسرارك ؛ ألم تقل لك في إحدى محادثاتها الهاتفية أن تثق فينا لنساعدكم على إنجاح علاقتكم.

قلت بهدوء مصطنع : إذن أنتم الخائنون وليست هي .

– بل هي التي خانتك .. ألم تقل لها .. و .. و .. كان الرجل يبدو أمامي ككلب مسعور ؛ بداخله سعار وحشي .. كنت أريد أن أذبحه .. لكن كيف أخسر عمري لمجرد تحقيق رغبة في قتل كلب !

أحقا خانت ؟ !

أحقا اشتركت في صنع شباك المؤامرة لي .. لا أحد يعرف عني أشياء هامة مثلك .. لا أحد أدنيته مني إلا أنت !! يشتعل الأسى بداخلي .. هل حقا صرت ذئبة تلتهمين الحلم ؟كنت لي الأمل اللامحدود الذي يسع العالم .. كل العالم .. والآن صرتِ حبلا غليظا يضيق الخناق حول عنقي ؛ أحاول الإفلات من قبضته ؛ لماذا كسرتني أنت بالذات ولم يكسرني أعدائي ؟!

أعماقي أصبحت كالعشب اليابس ؛ نظرت من نافذة القطار .. وجدت السماء تزداد الغيوم فيها تكاثفا .. الأرض متشققة تنتظر الري ، أحدق في السماء ؛ باحثا عن بريق إجابات لأسئلتي الكثيرة .. فاجأني بقوله : لمَ لمْ تجبني على سؤالي ؟

أيقنت أن هناك سؤالا مطروحا ..

– هل تلك المرأة تستحق كل هذا الحب ؟

– لا أدري !!

– لقد خدعت نفسك وخدعتنا ؛ صورتها لنا ملاكاً نقياً .

لماذا غررت بي ؟ لماذا اغتصبت أثمن ما عندي ؟

إنني الآن مطرود ؛ مرذول ، أطلعتك على ضعفي وحاجتي إليك .

لمَ لمْ تكوني لي نصيراً ... وتكوني لي وطنا يأويني ؟!

هل قدّرت وعورة الطريق الذي أسير فيه ؟! حسبتك تسيرين معي ؛ لقد تورطت في عدم تقديري الصحيح لمساحة فكرك .

قال : أنت في حاجة لأن تنسي .

عناوين كثيرة .. أرقام تليفونات لنساء كثيرات .. أرخص شيء في بلادنا الرذيلة !

دخلت المرأة حجرتي .. ابتسمت ابتسامة لها معناها للوهلة الأولي ضايقني مكياجها الكثيف الصارخ الألوان تطلعت إليها بعينين جافتين .. قالت :

– لما لا تساعدني في خلع الفستان ؟

ابتسمتُ ابتسامة بلهاء ؛ ولم أتحرك من جلستي .. بدأت تخلع ملابسها ببطء قطعة .. قطعة ..حتى أصبحت بملابسها الداخلية .. اقتربت ، التصقت بي .. كان بداخلي رغبة عنيفة لقهر" علياء " ؛ وكان بي رفض داخلي في لمس المرأة .. التصقت أكثر وأكثر .

ضائع أنا أبحث عن مرفأ في تيار .. التيه .

قالت : الآن .. هيا ..

تخدرت أوردتي وشراييني ؛ لم أكن أعلم أن بيني وبين تلك المرأة سداً منيعاً ، لا أستطيع تحطيمه أو تجاوزه ..

صوت علياء يطفو : " هل تستطيع أن تحب امرأة غيري " ؟

شعرت أني طفل خائب ؛ خائف ؛ مهزوم ؛ تورط في مشكلة كبيرة .. أسرعت إلى دورة المياه ؛ تقيأت .. عندما عدت ؛ وجدت المرأة قد انصرفت.

(٧)

قلت :

– يخيفني أن البئر الذي حفرته لإغراقي ؛ لا أستطيع هدمه .. يخيفني أن أفشل في لملمة أشلائنا المبعثرة.

قالت :

– أنا لم أخنك .. بعض الحاقدين هم الذين وشوا بك !!

– وهل هؤلاء كانوا يعرفون أخص أسرارنا أنا وأنت.

صمتت .. ماتت الكلمات في حلقها ..

أوتار كلماتي صمتت .. وحيرتي قاتلة ، وليلي حالك الظلمة ..

هل تستطيعين إقفال الأبواب في وجه الريح ؟

قالت :

– لاتحدثني عن الماضي.

تأملتها بدهشة .. هربت عيونها مني .. تيقنت أننا مخدوعان كبيران.

قلت لها :

– علمتني التجارب أن أتسامي .. لكن إرادتي في تسامح وشايتك ، لا أستطيع التحكم فيها ، أشعر أني مطعون بك وفيك .. إني خرب فكيف أستمد إرادتي ؟ ومن أي شيء غير ذات الإنسان يستمد إرادته ؟!

قالت :

– لم أستطع أن أتخيل مطلقا أنني سأكون لرجل غيرك .. أحقا من الممكن أن ينتهي كل شيء بهدوء؟

ثم قالت :

– لقد عرفت الألم أنا أيضا ، فهل تقدّر ما عانيت ؟!

– لكنك لم تعرفي عمق الألم كما عرفته .. أسير معها .. مشدوداً إلى السماء ؛ وهي تسير مشدودة تجتر الماضي ؛ البحر كان هائجا .. موجودات الطرقات والأرصفة كانت غاضبة .. وجه المدينة الساحلية كان مصلوبا بين الحلم واليقظة .. حصار فوضوي يكبل نفسي .. تتمرد في نفسي أشياء لا أدري كنهها .. لماذا لا نجني من الذين نحبهم سوي الجراح ؛ وندخل بداية جديدة وصلتنا إليها نهاية طريق سرنا فيه .. جلسنا ؛ ورغم كل شيء ؛ تمنيت أن أرخي رأسي على صدرها وأتأمل ملامحها عن قرب .

قلت :

– إنهم يتعقبونني ويفرضون حصارا عليّ .

حدقت فيّ .. أومأت برأسها ثم أطرقت صامتة .

قلت : رفضت أن أكون عميلا لهم .. رفضت أن ألوث نفسي بالوحل ..

كأن قلب أبي يشعر بما حدث .. قال : " لماذا يا ولدي نظراتك أصبحت غائمة المعنى ؟ "كبرت بذرة الحزن في نفسي ؛ صارت هي ملامحي .. أتطلع إلى السماء وهم يجذبونني إلى الأرض والوحل .

– وماذا عن أصدقائك ؟

– بعضهم مايزال صامدا والبعض الآخر انساق مع التيار ..إني أتعجب من هؤلاء الذين تسكنهم طاعة عمياء ، لا تتعجبي فأبوك كان مثلهم ، من أجل الوصول للمنصب لكن المنية لم تمهله.

– غير معقول .. أنا غير مصدقة .

اكفهر وجهها . تأملتني بذهول .. قالت: كان شريفا جدا ؛ لقد رفع دعوى قضائية أمام المحاكم بسبب اضطهادهم له .. و .. و(قاطعتها) لقد اطلعت على تقارير كتبها بقلمه تدين زملاءه ... هذه هي الحقيقة .

قال :

– الله يرحمه ؛ كان من أهم الشخصيات التي تعاونت معنا .

قلت :

– هذا افتراء ؛ الرجل ؛ كان يتمتع بالسمعة الطيبة ..

(قاطعني ..)

- .. كنت أعلم أنك لن تصدق ؛ ولهذا أحضرت لك بعض القصاصات التي بقلمه والتي سمح رؤسائي بأن تطلع عليها.

أخرج من درج مكتبه بعض الأوراق " نثرها أمامي .. جحظت عيناي وأنا أبصر .. ورق فولسكاب من الحجم الكبير ؛ سطوره زرقاء باهتة .. العناوين الجانبية مكتوبة بخط قلم أسود و باقي السطور مكتوبة بقلم أزرق غليظ الخط باهت في زرقته .

....

....

(وذبح الموظفون ؛ وسلبت دفاترهم ؛ ولم تعد لكلمتهم قوة).
"من وثيقة فرعونية"

سرت منكس الرأس .. مذهولا .. كاسفا .. أيقنت أن جموعنا تجري أمام بضعة أفراد .. وأن كلاً منا يرتدي قناعاً على حقيقة من الصعب اكتشافه حتى بعد موته .

لمت نفسي على ثرثرتي معها.. لكن كان يجب أن أبوح بماعلمت .

قالت : – صديقتي "عفاف" قالت لي أنك من الممكن أن تهددني برسائلي التي أرسلتها لك ؛ وصوري الفوتوغرافية .

قالت : – رسائلك أحفظها من حلاوة تعبيرها ؛ لكنني أحس أنك تنقل بعضها من كتب العشاق والمتصوفة .

قالت : لماذا يراقبونك ؟

حرام عليك أن تذبحيني ؛ وتحاولين سلخي بشكك هذا .. جريمتي صدقي معك .

يا عقلي : اجمع . أشلاءك . وقاوم .

بعد أن سلم عليّ وتناول الحقيبة من يدي .. قال : – ليتك تأخرت ولم تحضر اليوم ؟!!

– لماذا ؟!!

– البارحة جاءت الشرطة هنا وقبضوا على" محمود" و"صفوت" و"عارف" وسألوا عنك كثيرا ؛ وقال لي الضابط :إذا حضر فلابد أن تحثه على الحضور إلينا .

صمت ..

– من الأفضل أن ترجع إلى قريتك .

دخلت اغتسلت ؛ احتسيت كوبا من الشاي .. طُرق الباب بعنف ؛ قمت ؛ فتحته ؛ وجدت البواب أمامي يقول وهو يلهث : – لقد جاء أحدهم الآن وسأل عنك ؛ لكني قلت أنك لم تحضر حتى الآن من قريتك.

رحت في غفوة على الأريكة الموجودة في الصالة ؛ استيقظت على .. أصوات جلبة وزعيق .. ارتديت ملابسي وصعدت إلى سيارة الشرطة معهم .

(٨)

أهـرب .. تطـاردني الوجـوه الكريهـة ؛ فـي أيـديها الـسياط ؛ ترفعها ؛ تهوي بها عليَّ .. .. تتجمد ملامح وجهي ؛ أركض في أرض من الـصفيح المـدبب ؛ ألتفـت نحـوهم ؛ لـم يعرفـوا فـي عيـوني غيـر الاصرار يشعرون بفشلهم ؛ يظنون أني سأحاول أن أستدر عطفهـم .. حاصروني .. لم يعد أمامي مفر سوى السقوط في الحفرة التي أمامي أو أستسلم .. قررت أن أستسلم للحفرة بدلا من استسلامي لهـم .. كانت الحفرة حلزونية .. مليئة بالندوب والنتوءات .. ظللت أهوي وأهوي .. قمت فزعا من غفوتي .. تحسست جبيني الذي يتفصد منه العرق .. رأيت شرطياً يقف بجانبي .. قال: ستدخل حالاً إلى المحقق .." ودخلت .. "

قال بعد لف ودوران : – المعلومات التي توافرت لدينا تفيد أنك وأصحابك ما زلتم تروجون أفكاراً هدامة تحت ستار الحرية وحقوق الإنسان و .. شعارات جوفاء.

– ..... رددت عليه بابتسامة ساخرة .

ها نحن أسرى اتهامات لم نرتكبها .. حرك الضابط يده ؛ انطلق الشرطي الواقف بجوارنا معنا .. أدخلنا حجرة مظلمة ؛ باردة ؛ لها نافذة كبيرة ؛ مسيجة بالحديد ؛ أرضية الحجرة قذرة .. تشم منها رائحة العفن والرطوبة .. قفلوا علينا الباب بقفل غليظ صاح" عارف"

بحركة مسرحية : ها نحن أيها المناضلون قد سقطنا تحت سنابك الخيل .

ضجوا جميعاً بالضحك .

كنت صامتاً ؛ حزيناً ؛ منكسراً ؛ متوترا .. أتساءل : ما جريمتنا ؟.

شريط ذكرياتي مع علياء تجتره ذاكرتي .. أمسك يدها ؛ تصعد على الطوار ؛ تجري وأنا أمسك بيدها وتقول بصوت خفيض : أمسك يدي حتى لا أقع . المطر بالخارج يعانق الأرض ؛ يصنع فيها الوحل ؛ البرودة تغزو الحجرة من الشباك الحديدي الصدئ .. والحجرة خالية إلا من أربعة أشخاص .. تتحرك تحاول أن تخترق الظلمة .

قال صفوت : – تصوروا صديقتي قالت في آخر لقاء جمعنا: عقلك ليس معك وأنت معي ؛ هل كل الرجال ينامون مع النساء وهم حزانى مثلك ؟

انفجرنا ضاحكين ؛ وصمتنا فجأة .. نتأمل سؤال صديقة صاحبنا.

(هأنذا جئت أعاين جمالك ؛ لم أرتكب الظلم في الناس ؛ لم أقتل ولم آمر بالقتل ؛ لم أكذب ولا أذكر أني خنت عهدا ؛ لم أعص الأوامر الإلهية ؛ لم أرتكب الوشاية ؛ ولم أحرّض أحدا على رئيسه ؛ لم أجع أحدا؛ لم أسرق من التقدمات إلى الهياكل والمقابر؛

لم أطفف كيل القمح ؛ ولم أغش قياس الذراع وفي حد الحقل ؛ فأنا نقي .. نقي .. نقي)

"من كتاب الموتي"

(أنا عاشق ولهان ؛ وقد عذبني الحب ؛ وملكت الحبيبة عليّ مشاعري فأنا أراها في كل مكان ؛ وأراها على وجه الخصوص إذا سجي الليل .. ولكن ليلى ليست ليلى العامرية ولا ليلى الأخيلية ولا ليلى المريضة بالعراق ؛ بل ولا ليلى مراد .. وإنما ليلى المصرية ؛ ليلى الهيفاء السمراء ؛ ذات الشعر الفاحم والعيون الصحاح العراض.

إنها سعادتي وب–لائي ؛ شقوتي وهنائي .. أحبها حبا يقرب .. من الجنون ؛ وأغار عليها غيرة المفتون .. وأن أشقى ما يشقيني أن أرى جانبها أجنبيا ؛ أشقر ذا عيون زرق يغازلها ؛ ويحاول أن يصل إلى قلبها، ويل له مني .. والله لأقتلنه ؛ أو يبتعد عن طريق ملاكي)

"من اعترافات محمود مراد المتهم في حادثة مقتل " أمين عثمان "

لا تسألني :

كيف يحاولون سرقة اسمي وتضييع ملامح وجهي واغتصاب عمري ..

أحزان رجل لا يعرف البكاء



(١)

وافترقنا ..

(٢)

وفي المسرح الكبير دخلت أنا والرفاق .. أُطفئت الأنوار .. بدأ العرض المسرحي .. الشعب يقاوم الظلم .. و" الحجاج بن يوسف الثقفي " يروي الأرض بدماء الأبرياء ؛ يفتح السجون ؛ يملأ بطونها بالمظلومين .. كان " الحجاج " قوياً بسيفه .. مهزوماً في قلبه .. وبينما ظهرت محبوبة الحجاج ظهرت أمامي ؛ اندهشت .. أحقا هي أنت .. لا .. لا ربما بصري يخدعني ! كنت تجلسين في الصف الذي أمامي .. ورغم أنه أمامي إلا أنه يبعد عني كثيرا !!

تأملتُ ملامحك ؛ رغم الظلام المهيمن على صالة العرض .. ملامحك اخترقت حاجز الظلام الذي دائما يفصل بين الوجوه .. ويفرقها .. نعم هي .. أنت .. بوجهك الأبيض .. بملامحك الدقيقة .. وثيابك الفضفاضة .. لمحتك تضحكين وأنت تشاهدين مشهد محبوبة الحجاج وهي تقسو عليه .. تستغل حبها .. وتجلده بهذا

الحب .. ضحكت .. تمايلت على كتف رفيقك الجالس بجوارك .. بادلك ضحكة بضحكة .. همس في أذنك ؛ تزايد ضحكك .

– رباه أيكون ما أراه حقيقيا أم أنني أحلم ؟!

انتبه صديقي الجالس بجواري .. نظر إليّ مستفسرا .. متعجبا:

– أتتحدث مع نفسك !

دون وعي قلت :

– ربما هي .. لكن !

صمت ؛ عاد يسألني وهو يتابع العرض المسرحي :

– من هي تلك التي تتحدث عنها ؟

غرقت في الصمت .. تمتم صديقي .. غمز رفيقنا الجالس بجواره .. ورمقاني بنظرة اندهاش.

(٣)

– إنني أكرهك .. وأكره أمثالك.

نعم : قلتها لك في آخر لقاء بيننا .. ابتسمت يومها بمكر وقلت :

– تكرهني ، لأني خذلتك

– قبل أن تخذليني .. خذلت نفسك .

لـم تتكلمـي .. تـأملتني فـي صـمت قاتـل .. أخـذ يقطـع كـل شريان في جسدي النحيل ؛ لكني يومها كنت فخوراً بمواجهتك.. صـحيح قبـل لقـائي بـك ؛ دارت فـي نفـسي هـواجس شـتى " كيـف أدلف معك في حوار، وكانت ذكراك مجرد ذكراك تهزني ؛ ورغم تلك الهزة فإنها تتحول إلى رضا يتملكني .. ويسري في حنايا فكري وجسدي .. لغتي يا حنان تصير قزمة أمامك .. وكلماتك تقهر لغتي .. وتقهـر الـصمت .. تقهـر الزمـان والمكـان .. لكـن الحقيقـة تهتـك سترها ؛ فتجر أذيالها هابطة إلى المواجهة .. وكان اللقاء .. واللقاء بك شوق يخلق كونا بأكمله ؛ يومها – قبل لقائك – تمنيت أن أمنح بعضا من قوتك .. من جلدك الذي عهدته فيك دائما .. وساعة أن التقينا شعرت بخيبة أمل .. أنت لست أنت ..

جبروتـك يـذوب تحـت وطـأة إخلاصـي ؛ كـشعاع ضـئيل ؛ عاجلته أشعة الشمس ؛ فهزمته .

(٤)

انتهـى الفـصل الأول مـن المـسرحية .. أُضـيئت أنـوار المـسرح للاستراحة قليلا .. قررت في التو أن أتأكد ؛ أهو أنت بالفعل ! أم خانني بصري .. لمح صديقي الجالس بجواري هذا العزم متجسدا في عيني ؛ فقال ناصحا :

– انتبه يا صديقي ؛ إن معها رفيقا يبدو أنه خطيبها أو زوجها أو ...)
قاطعته(:
– لا يهم .

قمت من جلستي .. لا أخفي عليك أني شعوري بالضعف والتخاذل .. خفف من هذا الشعور في نفسي ؛ أن قام صديقي الثاني وقال سأرافقك .

أظن أنك نويت أن تفعلي ما أنوي فعله وهو التأكد من شخصي .. وعند المواجهة .. في الممر الضيق .. رمقتني بنظرة سريعة فيها إصرار غريب .. شعرت بالخجل .. نكست رأسك .. أطال صديقي التمعن في ملامح وجهك .. بعد أن تخطيناك بخطوات .. قال صديقي :
–كدت تفضحنا بنظراتك المتحدية الممعنة لها .

لم أجب .

(٥)

وعدتِ إلى مكانك في الصف الذي أمامي .. من جديد عاد "الحجاج" يساوم محبوبته إما أن تتزوجه أو يسجنها ..

وقد اخترت .

لقد عشت على أفكاري .. لا أريد أن تزعزعني أي ريح .. أيا كانت.. يوم أحاطت بي الكلاب من كل النواحي ؛ تريد افتراسي ؛

تركتني وحدي بين مخالب مجهولة .. كنت أراك في سجني وفي عينيك شماتة غبية:

– النضال من أجل المبدأ ، حتى وصل بك المبدأ إلى الاعتقال .. إلى السجن.

ارتعش لخديعتي فيك .. ارتعش رعشة تشبه ليلة عذبوني تحت الماء البارد في ليلة شتائية باردة .. أنين صدري يتجاوب مع أنين الغرفة الرطبة التي لا يزيد طولها عن متر وعرضها عن متر ونصف .

الدجي يرجمني .. والشمس التي انتظرها تعدو أمامي ذبيجة .. خافت "حنان " من شياطين الظلام .. كم قلت لك : لا أريد أن أتحول إلى آلة ، مجرد آلة تحيا بميكانيكية وألغي عقلي .. ورحت تبحثين عن عريس تسيران معاً في ركب الخنوع .

رغم كل شيء .. وبعد كل شيء ..

لم أتخل عن مبادئي ..

ولم أمت .. رغم أن السوط كان دائما خلفي .

(٦)

في الفصل الأخير من المسرحية .. قرر الحجاج إعدام حبيبته!

(٧)

وأصبحت النتائج معلقة بالذاكرة لا تفارقها .. لماذا المشاهد تبدو أمامك مُجزأة وناقصة ؛ إنك لا تملكين الحجة والبرهان ! لكنني أملك الحق .. والسؤال الحزين !

لماذا تنظرين إليّ بإصرار من صفك الأمامي .. تأملي ملامح وجهي جيدا .. هل حصارك لي يعني أني مهزوم ؟!

يا أغلى الأوهام .. هبي أنك لم تخلقي ؛ وخلقت أخرى مكانك .. أليس من المحتمل أن أحبها بدلا منك !!

الحب .. آه من تلك الكلمة التي أصبحت سقيمة .. ياحنان كل الثوابت شكلية ؛ فكثيرا ما نصحتك ألا تتمسكي بأشياء تافهة .. العلم لا قيمة له بدون الحنان .. خذلانك كان أقوى من طلقات الرصاص .. أقوى من سيوف " الحجاج ".

فيا صحوي .. هب كل شيء في كفة وحنان لو جاءت الآن طالبة العفو والغفران في كفة أخرى ! من تختار ؟

كعادتك أسئلتك قنابل تحملها في فكرك ، لكنك حتما تعرف الإجابات أو تعرف على الأقل كيف تحصل على إجابة شافية!

(٨)

وانتهت المسرحية .. لا أدري بماذا انتهت ؟

خرجنا من المسرح .. كنت تسيرين أمامنا متأبطة ذراع رفيقك .. لا .. لست أنت .. جسدك الذي أمامي الآن ضخم .. ملامحك متورمة ؛ متضخمة .. لست أنت !

نعم : صدقوني ؛ أنا الآن أكثر فهما وإدراكا لطبيعة الأشياء .. صدقوني واعلموا أن الأشياء لا تُفهم إلا بالأشياء .. تعبي يزداد بالوعي ؛ بمعرفة أشياء لم أعرفها من قبل !! كالمنوم ؛ سرت خلفكما .. جذبني صديقي ؛ قال :

– هذا تصرف غير لائق !

لا أخفي عليك .. جن جنوني .. وبلا وعي .. واصلت السير .. تطلعا إلى بعضهما .. لحقا بي .. وقف أحد الباصات .. صعدتما .. صعدنا أيضا .. جلس صديقاي على المقعد الخلفي لكما.. وجلست بجواركما ؛ على يمين رفيقك .. وعجبا من هذا القدر أجلس بجواركما كالغريب عنك !!

"الحب لم يعد إلا في السينما والمسلسلات وخيال المؤلفين" هكذا قلت يوما لإحدى صديقاتك .. حديثك دائما كان يعانق دفقة اعتقادي بقوتك .. الآن أنت قريبة مني ؛ لكني بعيد عنك .. بعيدة أنت عن لغتي .. عن روحي .. عن جسدي .. فلا أستطيع التعبير عنك لنفسك كما ينبغي .. لدي إحساس يعتريني أنك تشعرين بحسرة الفقد .. صحيح بين الإيمان والكفر قد تكون شعرة هينة .. كلانا اختار!!

(٩)

تأملت صمتك بسخرية .. لا تعجبي أني كشفت القناع عن وجهك !! وقعت عيناي على يديك .. أصابعك ، أظافرك ... أجل هي نفس الأصابع التي أشارت إلى السماء بسخرية .

– ما نتيجة صمودك .. هل تغير شيئا ؟!

أجل : هي نفس الأظافر التي خربشت وجه الحقيقة ؛ فنزف وجداني حزنا .. لكني أشعر أن تلك الأظافر الآن مبتورة .. ! قال لي يوما أبي " البتر هو الموت".

لا .. أنا لا أحب الانتقام .. " الانتقام ضعف " هكذا علمتني أمي .. يوم كنت طفلا صغيراً وضربني ابن الجيران ، فتوعدته بالانتقام .. وعندما وعيت نصيحة أمي كثر أحبائي وأصدقائي .. وكثر الذين يريدون هدم نصيحتها العملاقة .. من أنا كي أنتقم ؟!

رمقتني بنظرة سريعة .. لماذا ؟! هل تتساءلين : لماذا تتجاهلني؟!

لا .. لست أنت !! " حنان " كانت حنونة .. عفوية .. صمتها بليغ .. أسئلتها ليست سخيفة أو مكررة ! لو كانت لديك بقايا قوة .. انظري إليّ جيدا .. نعم .. انظري إليّ جيدا ، حتى النظرة تختلسينها !

(١٠)

تهيأت ورفاقي للنزول من الباص .. نظرت إلى رفاقي ..كأنك تستعطفينهم أن يستعطفوني ؛ لأواصل معك الرحلة .. لقد فات وقت الرجاء .

عندما توقف الباص ؛ نزلت أولا ونزل صديقاي .. نظرت إليّ نظرة طويلة ؛ معناها أكبر من أن يفسر .. وانطلقت السيارة لتواصل الرحلة بك وبرفيقك المجهول !

(١١)

سألني أحد صديقيّ ونحن نسير .

– هل أنت متأكد أنها هي .

....

أعاد صديقي الثاني نفس السؤال .. أجبت :

– ربما

– ما معنى ربما ؟

– ربما هي أو ليست هي!

نظرا إليّ بذهول .. وغرقوا في الضحك والسخرية .

– عجيب أمرك .. ألا تعرف حبيبتك الأولي ! أم أن السنين أنستك ملامحها ؟

– قال صديقي الثاني بإصرار :

– لدي إحساس أنها عرفته وكانت تراقبه طوال العرض المسرحي.

– رد صديقي الأول بعناد :

– ولدي يقين أنها ليست هي !!

– قلت بانفعال :

– في الماضي كنت أحبها .. أعرف ملامحها جيدا ؛ لأنها كانت نفس ملامحي .. أما الآن ؛ فلا أعرفها .. اختلطت ملامحها مع غيرها .. تبدلت ملامحها منذ أن غابت عن عالمي وعالمكم أيضا !

(١٢)

عندما خلوت بنفسي .. كنت حزينا .. حزينا .. حاولت أن أبكي لكن الدموع كانت عزيزة المنال .. في كل مرة أكبو فيها أقول لنفسي : ابدأ من جديد .. لكن هل كل أناس هذا العالم سيبدؤون من جديد ؟

صخب كأنه البكاء

مفارقات المأساوي في مجموعة : أحزان رجل لا يعرف البكاء

د. فريد الزاهي
المغرب

إذا كان الكثيرون يعتبرون كتابة القصة مجرد مدخل ممكن للكتابة الروائية، فإني اعتبرتها دائماً حكياً قائماً بذاته، لا يعوزه الطول والامتداد كي يستوي في اكتماله، القصة القصيرة فن النظرة ذات الإيقاع السريع، التي تلقي على العالم خلسة، وكأنها بذلك تسترق السمع إلى نبضاته الخفية، خارج كل مسار ملحمي مفعم بالحضور الأكيد للشخصية، ولذلك فالكتابة القصصية لا بطل لها، أو بالأحري أن بطلها الفعلي هو تقنيات الحكي والتصوير ولعبة المرايا التي يمارسها الكاتب بالقرب من ذاته، غير بعيد عن تقاطعات نفسه مع أنفاس الآخرين.

لذا حين قرأت "أحزان رجل لا يعرف البكاء" لخالد محمد غازي ذات صيف، كانت مدخلي إلى عالمه المأساوي الباطن، الذي يثوي خلف ضحكاته المرحة، وكأني بالقصة هنا تكشف عن عمق الذات في محاولات تواصلاتها مع ما يجعل من العالم كومة من

المتناقضات ، التي لا تنصاع للحكي إلا بتركيبها في وحدات لها منطقها الخاص ، في تذويب تكلسها.

"حزن في الرأس وفي القلب " وجدت نفسي أستعيد هذا العنوان للقاص المغربي لإدريس الخوري (في أولى إصدراته في مشارف السبعينات) وأنا أقرأ هذه المجموعة القصصية، لأنها تستبطن الحزن والمآسي وتقتنصها في تربة الواقع وتستجذبها إلى مهاوي الكتابة، من ثم يمكن الحديث عن مفارقة أولية تعلن عنها الكتابة القصصية لدى خالد محمد غازي، تتمثل في كون العنوان يمارس علينا المواربة منذ غلاف الكتاب، وهي مواربة يحتال بها القاص على القارئ، كي يستدرجه إلى مسارات المعنى المبطنة التي ترسمها الحكاية القصصية، فالرجل الذي لا يعرف البكاء (وهو عنوان القصة الأخيرة) يغلق الكتاب على تضاد علينا استكشافه، يتعلق الأمر هنا بالبكاء كموقف إدراكي جسدي تعلن من خلاله الذات عن رد فعل مباشر على مايخترقها من كبوات وصدمات وخيبات مضمرة ومعلنة، بالبكاء سيلان الذات وتفتتها، وفي الآن ذاته تنفس الجسد أمام صلابة ما يحاصره، وهو من ثم تعبير يحيل بكل أنواع الدلالة، والعزوف عن البكاء قطعاً موقف وجودي يحول البكاء العيني إلى مجاز ، ويجعل منه موقفاً استسلامياً، والحال أن البكاء يخترق هذه المجموعة ويجعل من شخصياتها محاصرة بالدمع : فالممثل "يسقط على المسرح بعد أن خنقته الدموع"(ص،٤٣)،

والدموع القاتلة تثقب خشب الباب الذي لا يحجب الحيرة واليأس وأحزان الغرباء(ص،٤٥)، وشخصية المناضل تنزف دماً وتبكي بحرقة (ص ص، ٧٥و٦٠).

هذه المفارقة الأولية لعبة ترمي بالدلالة القصصية إلى حجر القارئ ، كي يسائلها ويتحمل مسئولية متابعة مسارها، وكأن القصة بذلك تستنطق المعنى المأساوي بالسخرية منه، تارة عبر اللعب على المفارقات، وتارة أخرى يقول نقيضه مواربة إعلاناً للشيء بضده، من دون أن تتخلى طبعاً، عما يجعل من رفض المأساوي موقفاً من الواقع، فإذا كان رفض الحزن تعبيراً عن المواجهة والصلابة، فإنه في الحالات الأخرى تعبير عن نبض الجسد وارتعاشاته اللاواعية.

من ثم تنحو أغلب القصص إلى التقاط المأساوي وتعريته بالقول تارة ، وبالتصوير الوصفي أخرى، ومن خلال التلاعب بالزمن الحكائي، ففي قصة "حين يغير الماضي ألوانه" مثلاً، تمسك القصة بالمقطع الحياتي وتتلاعب بمنظوراته، محولة مأساوية ما حدث لحنان مع زوجها إلى مسرحية ساخرة ينقلب فيها العنف ضد صاحبه هكذا يتحول حامد إلى تلك الصورة التي تعيد آلام الجرح ويتحول حوارهما إلى محاولة للنسيان ، فحين تعلم حنان بما حدث لزوجها الذي استولى على شقتها وما لاقاه من جراء عنفه السادر ، تتجه لحامد : "لا أخفي عليك يا حامد وصديقته تحكي لنا ما حدث ، كانت أنفاسي تتلاحق وصدري يعلو ويهبط وكأنه يكسر قيوداً تكبله.

حامد : ها أنت تجعل جراحي تندمل وتحاصرني بإجابتك على أسئلتي المبتورة المؤلمة .. كل ملامحك كانت تقف بجواري لتجعلني قوية، أشق شرنقتي .. " ص٢٣

عيون الحكاية أو الكتابة بالعين

تخضع الكتابة القصصية لدى خالد محمد غازي لـ Perspectivlsm وهي الحيلة التي من خلالها يستطيع المؤلف من التمكن من حرية الكتابة والعمل على تنظيمها وفقاً لمسارات المعنى المبتغاه ، وبذلك تمنح اللحظة القصصية للمؤلف والقارئ وجهها وقفاها ، ماضيها وحاضرها ، أحشائها وجلدتها ، وكأننا بالمؤلف يسعى إلى أن يكشف عن كل مناحي اللحظة ويعري أوصالها ليمنحنا إياها في وجوهها المتعددة ، هذا المترع الاكتمالي يسعى به الكاتب إلى تفجير العنف الكامن في الشخصية والحدة والتوتر ، الذي تفترضه بكامل الليونة واليسر وكأنه بذلك يسعى إلى إشراك القارئ في عملية سبر المعنى وتحويله من مجرد متلقي للعملية الحكائية إلى حامل وصائغ لها .

تبعاً لذلك تفضي اللحظة القصصية بمكنونها المأساوي ، وتستوي للقراءة عبر مجموعة من التقنيات تعتمد التقطيع الحدثي والتوليف الحكائي واستعمال اللقطة السينمائية في حركتيها .

والحقيقة إن الكتابة بالعين تحول النص القصصي إلى ما يشبه السيناريو، معلنة ضمناً أن الالتقاط البصري أصل الصياغة اللغوية وأن العين هي المؤلف الأول لكل كتابة وأن الصورة القصصية مدخل لتعبيراتها واكتمالها الحكائي ، إن هذا التنوع يخلق تنويعات في الشخصيات ويتمكن من المآلفة بين المختلف وتطويع المتعارض وتحويل الحدث فعل التأثيرات المكثفة للحكاية .

تزج بنا الآلة الحكائية للمجموعة في صلب الحدث من غير إسراف في الحكي ، عبر الجمل المتقطعة التي تخلق إيقاعاً شعرياً أحياناً وإيقاعاً حدثاً أخرى ، وعبر المناوبة بين الحواري والحكي ، ولعل هذه التعددية التي يبدو أن المؤلف مغرم بها في نسج خيوط الحكاية هي التي تجعل من القصة لديه مسرحية بصرية متعددة الأصوات ومتعددة الموضوعات في الآن نفسه .. كما نلمس ذلك بشكل جلي في قصته "لا تؤاخذني على صراحتي" ، "الرهان على جواد ميت" بحيث تغدو الحكاية مختبراً حياً لخلق التخييلي للشخصيات والأحداث وإعادة صياغتها بما يضمن لها سيولتها وتلقائيتها .

كما أن هذه الإدراكية الممنهجة التي تستخدم كل الطاقات الحسية في صياغة الكتابة القصصية تزج بنا أيضاً في خضم الشبكة الحكائية ذات المداخل المتعددة ، الأشبه بالمتاهة أحياناً ، وكأني بغازي يتماهى هنا مع أهرامات الجيزة ويبني المعنى تبعاً لمسارب

البنـاء الهرمـي المتـصاعد الحابـل بالتـداخلات والتفـاعلات ، والتـي نغدو معها أمام لجّات ومويجات تدفعنا تارة وترمي بنا تارة أخرى في صلب اللحظة الحكائية ، وهذا فإن الهدوء الظاهر للحكي يضمر عنفاً وتقاطعات تنبئ عن الحدة والتوتر اللذين تكتب بهما القصة وترتوي بهما مغاور الرؤية المأساوية "للعالم في بعدها الفلسفي" كعيش للمفارقات وللمسافات بين الرغبة وممكنات تحقيقها .

ولعل هذا أيضاً ما يجعل من الموت الموضوعة التي تسربل الحكاية وتمنحها نسغها ، فعلاقة الكتابة القصصية هنا بالموت يأتي من خلال ومضات تؤكد الطبيعة المأساوية للمفارقات وتجعل من مساءلة الغياب إحدى أكبر القضايا التي تتفاعل معها وضمنها قضية الكتابة برمتها .

الفهرس